الجزء الثاني المجلد الرابع والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

جمادى الآخرة ١٤٠٣ هـ
نيسان ١٩٨٣ م

المفهوم اللغوي والإصطلاحي للريف والسواد عند العرب

الدكتورة ناجية عبدالله ابراهيم

كلية الآداب – جامعة بغداد

ان المطّلع على الدراسات التي تُعْنَى بتاريخ العرب في العصر الوسيط ، يجد إهمالاً بيّناً للمناطق التي تقع خارج المدن ، في الوقت الذي يظهر فيه عناية بدراسات المدن ، بالرغم مماللأولى من اهمية تجلّت في اضطلاعها بصنع تاريخ البلدان وتحديد قدراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية . ولعلّ القصور في مثل هذه الدراسات يرجع الى فقر المكتبتين العربية والأجنبية على حد سواء ، بالمصادر التي تضع من هذه المناطق موضوعاً لدراستها من جهة ، وتناثر ما كتب عنها في ثنايا هذه المصادر ، إلى حد يتطلب الكشف عن الحقيقة من خلالها جهداً ليس باليسير ، ووقتاً غير قصير ، من جهة أخرى .

لذا حاولت هذه الدراسة أن تدلو بدلوها في دراسة هذا الموضوع ، وأن تتناول جانباً ضيّقاً منه ، إذْ قصرت جهدها على محاولة تحديد المفهومين الاصطلاحيين لكل من « الريف » و « السواد » عند العرب ، منطلقةً بادئ بَدْءٍ مما تعارف عليه العرب لكل منهما في اللغة ، آخذة بنظر الاعتبار المرحلة التاريخية والرُّقعة الجغرافية لكل منهما .

الريف لغة واصطلاحا :

إن الريف في اللغة العربية كلمة تتضمن معنى الخِصْب في تركيب

حروفها ، وهي الراء والياء والفاء [١] . إلاّ أن ابن سيدَه يرى أن كلمة الريف اسم ، مصدره الإرافة [٢] . وفي هذا يُقال : أرأفتِ الأرض إرافةً وريفاً . وهي تماثل في هذا كلمة «إخْصاب» حين يقول العرب : أخصبت إخصاباً وخِصباً . فهما سواء في الوزن والمعنى . وقد اشتقت في العربية منها الصفة والفعل فقالوا : « أرض ريفة » وهي من الريف أيضاً . و « رافت الماشية » ، أي : رعت الرّيف [٣] .

أما استعمالات الريف الاصطلاحية ، فقد اختلفت تبعاًلاستعمالها فيحالة الإفراد أو الجمع . فحين قُصد بها الخِصب والسّعَة في المآكل [٤] ، كانت مفرداً ، لأن الخِصب والسّعَة تخصّان موضعاً معيناً ، على عكس الحال حين قُصد بها معنى « ما قارب الماء من أرض العرب وغيرها » . فهذه مواضع متعددة يسكنها الناس . وبهذا المعنى جُمعت على « أرياف » و « رُيوف »[٥] . ويتصل بهذا ما جاء في حديث العُرَنيّين : « كُنا أهلَ ضَرْع ، ولم نكن أهل ريف » [٦] .والمراد أنا من أهل البادية ولسنا من أهل المدن [٧] . وكأن المفسّر

---

(١) ابن منظور ، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم : لسان العرب ، بيروت ، ١٩٥٦ ، ١٢٨/٩ .

(٢) ابن فارس ، أبو الحسين أحمد بن زكريا بن فارس : مقاييس اللغة ، مصر ، ١٩٧٠ ، ٤٦٨/٢ (نقلا عن ابن سيده) .

(٣) ن . م : ٤٦٨/٢ .

(٤) البكري ، عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي ؛ معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٤٩ م ، ٩١٤/٣ : لسان العرب ، ١٢٨/٩ .

(٥) لسان العرب . ١٢٨/٩ .

(٦) ابن حنبل ؛ أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني : المسند ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ١٦٣/٣ و ١٧٠ ، والبخاري : أبو عبدالله محمد بن اسماعيل : الجامع الصحيح ، ليدن ، ١٨٦٢ ، ١١٩/٣ و ٥٨/٤-٥٩ ، والنسائي ، أبو عبدالرحمن احمد بن شعيب : السنن ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٣٠ م ، م ١ ج١/١٥٩ .
وقد لوحظ أن مصطلح « الريف » ورد لاول مرة في كتب الحديث النبوي الشريف ، بصيغ متعددة نحو « ريف ، أرياف ... الخ » أنظر إضافة الى المصادر السابقة : مسلم بن

أراد من الريف المُدُنَ ، ليؤكد اعتماد الريف حياة الاستقرار كما سنلاحظ ، لأن أهل البادية هنا يُراد بهم أهل الإبِل من العرب ، ولأن أغلب سكان الجزيرة العربية كانوا من البدو الرُّحّل [٨] .

السَّواد لغة واصطلاحا :

السّواد خلاف البياض في اللون ، واشتقاقه في اللغة أصل واحد هو السين والواو والدال . يُقال: سَوِدَ ، وسادَ ، وأسْوَدّ اسْوِداداً ،واسْوادّ اسْوِياداً أسود ، والجمع سُودٌ وسُودانٌ[٩] .

والسّواد أيضاً : سواد العراق [١٠] الذي افتتحه المسلمون على عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه . سُمي بذلك لسواد أرَضِيهِ بالزروع والأشجار ، أي لخضرتها ، لأن الخضرة عند العرب تُقارب السواد [١١] ، ولأن العراق تاخم جزيرة العرب التي لا زرعٍ فيها ولا شجر [١٢] .وكان العرب إذا خرجوا من

= الحجاج القشيري النيسابوري : الصحيح ، القاهرة ، ١٩٦٠ م ، ١١٧/٤ و ١٢٥/٥ ، وأبا داوود سليمان بن الأشعث السجستاني : السنن ، ط١ ، مصر ، ١٩٥٢ م ، ٣٤٥/٢ و ٤٧٢ . ولم يرد المصطلح في أية صيغة في القرآن الكريم . ويبدو أنه لم يستعمل جميع الألفاظ ، مع أن المصطلح كان سابقاً لظهور الاسلام ، والذي ورد فيه هو مصطلح « القرية » وقد جاءت فيه بصيغ متعددة نحو « قريتكم » ، القرية ، القريتين ... الخ » .
أنظر : عبدالباقي ، محمد فؤاد : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، القاهرة ، ١٣٧٨هـ، ص ٥٤٣-٥٤٤ . (٧) لسان العرب ، ١٢٨/٩ .

(٨) للاطلاع انظر: زيدان، جرجي: تاريخ التمدن الاسلامي، ط:، دار الهلال، ١٩٥٦م ، ١٥/٤-١٦ .

(٩) لسان العرب ، ٢٢٤/٣ .

(١٠) سواد العراق هنا يراد به اقليم بابل القديمة ، وهو القسم الجنوبي من بلاد مابين النهرين – دجلة والفرات – الذي امتاز بأرضه الرسوبية الخصبة التي تسقيها أنهار الري . وقد اتسع مدلول « السواد » فيما بعد حتى صار هو والعراق لفظين مترادفين في الغالب . انظر : عبدالله أمين محمود : الجغرافية الادارية للدولة الاسلامية من الفتح العربي الى القرن الرابع الهجري ، مجلة الدارة ، ج/٣ ، السنة ٧ ، ١٩٨٢ ، ص ٢٩٢ .

(١١) لسان العرب ، ٢٢٤/٣ .

(١٢) يستثنى من ذلك اليمن ، وهي من جزيرة العرب أيضاً ، وكذلك الحجاز وعسير ومناطق اخرى سنشير اليها لاحقاً .

أرضهم الى العراق ، ظهرت لهم خضرة الزروع والأشجار . والخضرة إذا ما اشتدت وتكاثفت ، بانت سواداً ، ولهذا يخلطون في التسمية بين الخضرة والسواد . وهذا ما دفع الشاعر الأسود الفضل بن العباس أن يقول [١٣] :

وأنا الأخْضَرُ من يَعْرِفُني أخْضَرُ الجِلْدةِ مِن نَسْلِ العَرَبْ

فسمى نفسه « أخضرَ» من هذا المعنى . ولذلك أيضاً سمى العرب خضرة العراق سواداً ، لتأثرهم بلونها الأخضر ، مثلما تأثروا ببقية الألوان الاخرى ، وأطلقوا عليها تسميات مماثلة ، كلصفُرة التي استعملوها للصحراء ، والزرقة التي استعملوها للأنهار [١٤] .

وإذْ كانت الأرض السوداء ، منسوبة الى كثرة نخيلها وأشجارها الخضراء اللون ، سميت الأرض ذات الخضرة « الروضة » أيضاً ، لكنها لا تعنى السواد بمفهومه الواسع هذا ، لأن الروضة تعني كذلك « البستان الحسن » [١٥] وهي تشمل المساحة الصغيرة من الأرض ، أو الموضع يجتمع إليه الماء فيكثر نبته . ولذلك لا يُقال في موضع الشجر روضة .

الأسس الطبيعية والبشرية التي اسْتَمَدّ منها مصطلحا « الرّيف » و « السواد » مضمونيهما

إن وجود الماء سمة أساسية لوجود الريف . فحيثما تكن المياه يكن الخصب وحيثما تكن الأنهار ، تكن القرى والمزارع ، وبذلك يتكون الريف . واذا

(١٣) ابن خرداذبه ، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله : المسالك والممالك ، ليدن ، بريل ، ١٨٨٩ ، ص ٥ : الماوردي ، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، ط١ ، مصر ، ١٩٦٠ م ، ص ٧٢ ، الخطيب ، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي : تاريخ بغداد ، ط١ ، مصر ، ١٩٣١ م ، ٢٤/١ ، السمعاني ، أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور : الأنساب ، ط١ ، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ، الدكن ، الهند ، ١٩٦٣ م ، ٢٨٤/٣-٢٨٥ ، ابن منظور : لسان العرب ، ٢٢٥/٣ .

(١٤) المقدسي ، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد البشاري ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ط٢ ، ليدن ، بريل ، ١٩٠٦ م ، ص ٩ .

(١٥) لسان العرب ، ١٦٢/٧ .

كانت سمة الخصب في الريف تدل على الازدهار والعمران ، كما تدل على الجودة والحياة النشطة ، والاستمرارية في الانتاج ، فان هذه الأمور لا يمكن ان تتوافر الاّ في الأرض ذات التربة الجيدة ، والمياه الكثيرة ، والمناخ الحسن . وهي عناصر أساسية لقيام الزراعة وازدهارها ،وهي قوام الحياة في الريف وغاية استمراريّتها . قال القُطاميّ (١٦) :

من المَشْتَوِينَ القِدّ مما تَراهُمُ
جياعاً وريفُ النّاسِ ليس بناضبِ

بيد أن هذه الأمور هي أيضاً لا يمكن تحقيقها بمَعزِل عن الإنسان ونشاطه المستمر . ومن هنا فان العنصر البشري عامل مُهمّ في الريف ، وكانت الزراعة عامل استقرار له . مما يعيـــد الى الاذهان اقتران مفهوم الريف بالفلاحين (١٧) . وربما يعود سبب هذا الاقتران الى سمات الخصب والزرع في الريف ،إذ لا يمكن أن تتطور الاّ بوجود الفلاح. لذلك تميز هؤلاء الناس الذين يقطنون الريف عن غيرهم من أبناء المجتمع ، وأصبح أهل الفَلْح ، هم أهل الزراعات والحرث وسكان القرى في الأرياف (١٨) .

من جانب آخر لوحظ أن الغرس للأشجار هو أيضاً يُفيد الاستقرار ،لأنه يكتسب حالة ثبوت للقرى ، ويجعل الريفي ألصق بمكانه من غيره من أصحاب الأَرَضين ، بسبب علاقته ببستانه واتّصاله بمغروساته (١٩) .وبذلك تفقد الحياة

(١٦) القطامي ، عمير بن شييم بن عمرو : الديوان ، ط١ ، بيروت ، ١٩٦٠ م ، ص ٤٨ .

(١٧) وكان يسمى « الأكار » أيضاً أو الزراع . وماتزال كلمة «الفلاحة » مستعملة في الوقت الحاضر بصورة واسعة خاصة في شمال أفريقية، وفي كلتا اللغتين الرسمية والشعبية . ففي المغرب مثلا تسمى وزارة الزراعة « وزارة الفلاحة » . أنظر :
The Encyclopaedia of Islam, New Edition, London, Brill, 1965, V. 11, P: 899.

(١٨) عبدالفتاح ، فتحي : القرية المصرية دار الثقافة الجديدة، ١٩٧٣ ، ص ١٧٩

(١٩) من هنا يكون تجمع البساتين نواة لتكوين القرى. وتقرب القرى يؤدي الى تكون البلدة وهكذا يتم التطور . للاطلاع على تفاصيل اخرى أنظر : العزاوي : عشائر العراق ، بغداد ، ١٩٥٥ ، ٣/٢٨٦-٢٨٧ .

في الأرياف غالب صفات البادية . وهذا هو مجال اختلاف الحياة في الريف عنها في البادية التي قوامها الارتحال والانتقال والرعي وانتجاع الكَلأ والماء . وهي حياة مقفرة قاسية ، بعكس الريف حيث الخصب في الأرض ، والبساطة في العيش ، والاستمتاع بالخيرات ، والإخلاد الى الراحة ، والعمران في الحياة . وقد ميزتها العرب قديما بقولها : « برٌّ مقفر ، وريف مُقمر » (٢٠) .

إن هذا الأمر يدفعنا إلى تأكيد حقيقتين مهمتين : أولاهما حقيقة الاستقرار لدى سكان الأرياف حيث العمل في الزراعة ، وهي قوام الحياة هناك ، والحقيقة الثانية اختلافهم عن أهل البادية حيث الرعي وانتجاع الكَلأ والماء ، وهي سمة مميزة لسكان البادية أينما وجدوا . رُوي أن عَمْرو بن أحمر الباهليّ شكا عمال الصدقة في زمن عبد الملك بن مروان فقال مؤكداً (٢١) :

إننحن إلاّ أُناس أهلُ سائمة (٢٢) ما إنْ لنا دُونَها حَرثٌ ولاغَرَرُ

أضف الى ذلك أن الريف تضمن معنى آخر من معاني الخصب ، ألا وهو المناخ . فالهواء الطلق المعتدل هو سمة الأرض الريفية التي تبعث البهجة والسرور الى النفس . ولعلّ هذا يُفسّر سبب لجوء الإنسان الى الريف ، بين الحين والآخر ، للاستقرار فيه ، والاستمتاع بهوائه ، وبطبيعته الخلابة ، طلباً للنزهة والإخلاد الى الراحة . ومن المفيد أن نورد هنا شعر ابن لنكك يصف هواء البصرة وعيش سكانها في حالتين من المناخ وأثر ذلك فيهم ، قال (٢٣) :

(٢٠) القلقشندي ، أبو العباس احمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الانشاء ، القاهرة ، ١٩١٣ ، ٤٢٦/١١ .

(٢١) شعر عمرو بن احمر الباهلي ، جمعه الدكتور حسين عطوان ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، ص ١٠٧ .

(٢٢) السائمة : الابل الراعية . والغرر : واحدتها غرة وهو العبد .

(٢٣) الحموي : معجم البلدان ، م ٦٤٧/١-٦٤٨ ، القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود : آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ٣١٠ . وابن لنكك هو محمد بن محمد بن جعفر البصري المتوفى نحو سنة ٣٦٠هـ / ٩٧٠م . انظر : الزركلي ، خير الدين : الاعلام ، ط٢ ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ٢٣٤/٧ .

نَحنُ بالبَصْرةِ في لَوْ ... نٍ من العَيشِ ظَريفِ
نحنُ ما هَبّتْ شمَالٌ ... بينَ جنّاتٍ وريفِ
فإذا هَبّتْ جَنوبٌ ... فكأنّا في كَنيفِ

فريح الشمال هنا تبعث إلى البصرة البهجة والسرور والراحة فتجعل فيها الحياة طيبة حسنة ، وريح الجنوب عكس ذلك ، تبعث الى أهلها الانزعاج والرائحة الكريهة .

وهذا الذي تقدم يدفع الباحث الى الاعتقاد بأن موسم الريف يزداد خيراً، وينحسر خصبه بحسب فصول السنة . ولما كان الريف يكثر عادة في فصل الصيف ، كان فصل الصيف فصل الخيرات ، وانتعاش الحياة الطبيعية ،وكثرة نعيمها . ففيه تنضج الثمار ، ويطيب عيش الناس ، ويكثر الريف ، وتزدهر الحياة بطيباتها للانسان والحيوان على حدّ سواء . وقد أشار القزويني الى هذا المعنى بقوله :« وأما الصيف ، فهو وقت نزول الشمس ... تقوى أكثر النبات ، والحيوان ،وأدركت الثمار ،وجفّت الحبوب ، وقلّت الأنداء، وأضاءت الدنيا، وسمنت البهائم ، واشتدت قوة وكثر الريف ، وانتشرت الحيوانات على وجه الأرض، لعموم الخير...وطاب عيش أهل الزمان...و نقصت الأنهار ،ونضبت المياه ...ويبس العشب، وأدرك الحصاد ، ودرّت الأخلاف ، واتّسع للناس القوت ،وللطير الحبّ ،وللبهائم العلف ،وتكامل زخرف الأرض.وصارت الدنيا كأنها عروس منعمة ، بالغة كاملة ، كثيرة العُشّاق ، ذات جمال ورعوبة ، فلا يزال الأمر كذلك إلى ان تبلغ الشمس آخر السنبلة فحينئذ انتهى الصيف وأقبل الخريف » (٢٤) .

فالريف إذن : أرض فيها زرع وشجر وخصب ، وموقعها حيث يكون

(٢٤) القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات ، نشر فرديننند فيستنفلد ، ١٨٤٨ ، ص ٨٥-٨٦ .

الخضر والمياه [٢٥] . يُقال : تَرَيّف القوم ، وأريفوا ، وتَرَيّفُوا اي صاروا الى الريف وحضروا القرى ومَعِين الماء . ومن العرب من يستعمل اللفظ بصيغة أخرى فيقول : راف البدوي يريف ، وهو أيضاً بمعنى أتى الرِيّف ، ومنه قول ابن بَرِيّ [٢٦] :

جوّاب بَيداءٍ بها غَرُوفُ لا يأكلُ البَقْلَ ولا يَرِيفُ
ولا يُرى في بيته القَليفُ [٢٧]

أما (رواف) فمن : رافَ البدويّ ، أي : سكن الريف . وفيه قال ابن مُقْبِل [٢٨] :

فَلَبَّدَهُ مَرُّ القِطار ورَخّهُ نِعاجُ رُوافٍ قبلَ أنْ يتشدّدا

على أن هذا لايعني أن الريف هو الحَضَر ، بل هو جزء منه ، وهو كذلك حالة متقدمة عن البادية ، لأن البداوة أقرب ما تكون الى الفطرة الطبيعية [٢٩] . ولعلّ تفسير ابن منظور لكلمة « الحضر » خير توضيح لهذا الأمر ، فهو يقول « والحاضرُ والحَضْرةُ والحاضِرةُ : خلاف البادية ، وهي المدن والقرى والريف » [٣٠] . ثم يعلل ابن منظور سبب تسميتها بذلك فيقول : « سُميت بذلك لأن أهلها حضروا الأمصار الاسلامية ، ومساكن الديار التي يكون لهم بها قرار » [٣١] .

وهذ يؤكد ، في وضوح أن العمران والاستقرار يمثلان أهم مقومات

(٢٥) الحضر : خلاف البدو . والحاضر خلاف البادي . وفي الحديث : لايبع حاضر لباد . الحاضر : المقيم في المدن والقرى ، والبادي : المقيم في البادية . والبادية : هي الأرض الخالية من البناء والعمران . لسان العرب ، ١٩٧/٤ .

(٢٦) لسان العرب ، ١٢٨/٩-١٢٩ و ٢٩١ .

(٢٧) غروف : أي كثير الأخذ للماء . والقليف : جلال التمر واحدها قليفة وقيل هو التمر البحري يتقلف عنه قشره . لسان العرب ٢٦٣/٩ ، ٢٩١ .

(٢٨) الحموي : معجم البلدان ، ٨٢٧/٢ . [لجنة المجلة : رواف في لسان العرب بفتح أوله وغير مهموز من : راف يريف ريفاً ، وليس من رؤف] .

(٢٩) زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ١٤/٤ .

(٣٠) لسان العرب ، ١٩٧/٤ .

(٣١) ن . م .

سكان الحضر ، وبهما يختلفان عن سكان البدو . وبذلك يتأيد ما قرره ابن خلدون من أن « الحضر هم أهل الديار والبلدان »[٣٢] يكون صائباً ومتفقاً كلّ الاتفاق مع ما ذهب اليه ابن منظور .

الاّ أن هذ لا ينفي كون أهل الريف هم أصلاً من البادية ، وأن ظروف التطور الاجتماعي والسياسي والاقتصادي جعلتهم ينزعون إلى الاستقرار والارتباط بالأرض ، تاركين حياة الارتحال والانتقال التي اعتادوها سابقاً . وبمرور الزمن فقدوا الكثير من خصائصهم . ومن هنا يكون ما جاء به ابن خلدون من أن البدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما [٣٣] ، أمراً طبيعياً في التطور الاجتماعي ، ومصداقاً لقولنا إن الريف يُمثل حلقة وسيطة بين البداوة والحضر .

كان اهتمام العرب بالارض وتمييزهم لطبيعتها الجغرافية في الموقع ، كبيراً . وكان ذلك الاهتمام من الدقة بمكان ، بحيث حُدّدت مفاهيمها بحسب المصر الإسلامي الواحد، مما يجعلنا نظن وجود حقيقة تؤكد سمات معينة لتحديد منطقة الريف ، وفيما عداها لا يصحُّ أن يكون كذلك . وقد عبّر عنه الجغرافيون بتسميات عديدة ، فقالوا في « العِذْي » : عِذْيُ الكَلأ والنبات ، هو ما بَعُدَ عن الريف ، وأنبته ماءُ السماء [٣٤] ، أي : ما يكون زرعه من الطبيعة لا يسقيه الاّ المطر ، كالأعشاب والحشائش ونحوها . وقالوا في القُرى الصغار التي تدنو في مكانها من المِصر « المذارع » . ومذارع البصرة : نواحيها [٣٥] .

---

(٣٢) ابن خلدون : التاريخ ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ٢١١/١ .

(٣٣) ابن خلدون : التاريخ ، ٢١٤/١ ، الزاوي : عشائر العراق ، ٢٧٩/٣ .

(٣٤) الحموي : معجم البلدان ، م ٦٢٤/٣ ، لسان العرب ، ٤٣/١٥ وفيهما أيضاً : أن العذي كالعذاة ، وهي الارض الطيبة التربة الكريمة المنبت التي ليست بسبخة ، ولا تكون ذات خامة ولا وباء وفيها قال ذو الرمة .

بأرض هجان الترب وسمية الثرى عذاة نأت عنها الملوحة والبحر

(٣٥) الحموي : معجم البلدان ، ٤٦٩/٤ . ابن عبدالحق ، صفي الدين عبدالمؤمن : مراصد الاطلاع على أسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق ت . ك . جوينبول ، ليدن ، بريل (غير مؤرخة) ٦٧/٣ .

أما بين الرّيف والبدو ، فسمّوه « العذار »[٣٦] كالعُذَيْب ونحوها [٣٧] .

بل إن التمييز في هذا الجانب امتدّ أبعد من هذا ليضع مفاهيم معينة تُميز أرض العرب نفسها ، بعضها عن بعض ، بتسميات دقيقة . فـ « المَشارِف » من أرض العرب على ريف العراق مثلاً أطلقوا عليه اسم « الطفّ » ، [٣٨] وطَفُّ الفرات شاطئه . وسُميّ موضع الفصل بين الأرضين من الحدود والمعالم بـ « التخوم » [٣٩] أو « البيون » ، وتُسمى الحد أيضاً ، لئلا يختلط أحدهما بالآخر [٤٠] . والحد بين الشيئين يُعنى به « المِصر » [٤١] كذلك .

التطبيق الاصطلاحي لمفهومي « الريف » و « السواد » في العراق

لا أذهب في دراستي لمفهوم مصطلح « الريف » في العراق الى وجود مفهوم آخر يذهب مذهباً مناقضاً لما أوردته فيما تقدم من البحث . فما أبغيه هنا هو عرض مفهوم هذا المصطلح في العراق قصراً وإبرازاً للجانب التطبيقي لهذا المصطلح في منطقة بعينها من مناطق الوطن العربي كحالة « عينة » لما هو شائع في أنحائه الأخرى . وتأكيداً لهذه الحقيقة يمكن ان أتناول بشيء من الإيجاز مفهوم الريف في أجزاء أخرى من الوطن العربي .

ان ما تقدم عرضه في هذا البحث يدفعني الى القول إن الريف تضمن معنى

(٣٦) الحموي : معجم البلدان ، ٦٢٤/٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٤٢/٢ .

(٣٧) العذيب : تصغير العذب ، وهو الماء الطيب ، وهو ماء بين القادسية والمغيثة . وقيل : هو واد لبني تميم . والعذيب كذلك حد السواد « سواد العراق » من جهة الغرب . الحموي : معجم البلدان ، ٦٢٦/٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٠٣/٢ .

(٣٨) الحموي : معجم البلدان ٥٣٩/٣ و ٥٣٦/٤ ، ٥٣٨ ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ٢٠٥/٢ .

(٣٩) مفردها «تخم» بمعنى منتهى كل قرية أو أرض . يقال هذه الأرض تتاخم أرض كذا ، أي تحادها . لسان العرب ، ٦٤/١٢ .

(٤٠) ن . م : م ١٤٠/٣ .

(٤١) ابن فارس : مقاييس اللغة ، ٣٣٠/٥ ، الحموي : معجم البلدان ، ٤٢/١ ، لسان العرب ، ١٧٦/٥ .

من معاني السواد ، وهو الخضرة ، وكلاهما بسبب الخصب . ولما كان الريف هو موضع الشجر والزرع ، فهو جزء من السواد . قال الشاعر [٤٢] :

إليكَ جَاوزْنَ سَواد الرّيفِ في هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ
مُخطّمات بحبال الليّفِ

وفي القبائل العربيةالتي تحارب بعض أبنائها ، قَبَيْلَ الإسلام وتفرقوافي البلاد، قال البكري أيضاً: .. « حتى قدموا عليهم البحرين، فأقاموا بها... ثم ظعنوا منها الى السواد: سواد العراق ، يطلبون الريف والمتسع والمعاش» [٤٣] .

لقد أنعمت الطبيعة على أرض العرب بخصائص الريف الطيبة ، فجعلت من وادي الرافدَين : دجلة والفرات ، أرض الرسوب الخصبة ، فكان فيه « ريف العراق » [٤٤] ، وفي وادي النيل ، حيث تمتـد الأرَضون الخصبةعلى ضفتي النيل ،أن يكون فيـه « ريف مصر » [٤٥] ، الى جانب بلاد اليمن ومشارف أرض الشام [٤٦] ، وقسم من بلاد مرّاكش في المغرب [٤٧] . وهي

(٤٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ٢/٢٤٥ .

(٤٣) الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك ، بيروت ، ١٩٦٥ ، ق١ م٢/٧٤٥ ، البكري : معجم مااستعجم ، ١/٥٢ ، الحموي : معجم البلدان ، ٢/٣٧٧ .

(٤٤) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٢/٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٧ . الحموي : معجم البلدان ، ١/٦٩٣ و م٣/١٦٤ ، ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٥٣٩ . ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢/٢٠٥ . الحميري ، محمد بن أبـي عبدالله : الروض المعطار في خبر الاقطار ، بيروت ، ١٩٧ ، ص ٦١١ . القلقشندي : صبح الأعشى ، ٢/١٤٠ .

(٤٥) الحموي : معجم البلدان ، ١/٨٨١ ، ٩٠٥ ، ٩٠٧ ، ٩١٢ و ٣/٥٥٠ و ٤/٦٧٢ . وكان ريف مصر وجهين : الوجه القبلي وهو المعروف بالصعيد ، والوجه البحري وهو الشمالي المخصوص عندهم في القديم باسم الريف . القلقشندي : صبح الأعشى ، ٣/٣٨٢ و ١١/٤٢٦ .

(٤٦) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٢/٧٤٥ ، الحموي : معجم البلدان ، ٢/٣٧٧-٣٧٨ .

(٤٧) البستاني ، فؤاد أفرام : دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨٧ ، ٩/١٢٠ .
ومن الطريف ان نذكر ان كلمة « الريف » كانت تطلق في المغرب العربي وكذلك في الأندلس ، على الأرضين التي تحف بالبحر . وهي – أي كلمة الريف – أيضاً اسم علم للمنطقة الجبلية الممتدة في شمال المغرب الأقصى . أنظر : العبادي، أحمد مختار : الحياة =

مناطق تتمتع عموماً بمناخ إقليمي حار صيفاً ، ومعتدل شتاءً [٤٨] . فكان الريف فيها عامراً ومميزاً لأرضها الزراعية ، وكانت الزراعة حرفة لغالب سكانها يعتاشون منها ، وجُلّ اعتمادهم عليها . بل نستطيع القول إن الواحات التي في شبه الجزيرة العربية ، والبساتين والحقول المحيطة بالطائف والمدينة ، هي من الريف أيضاً . فان سكان البَحْرَيْن وعُمان وهَجَر وغالب بلاد نجد ، كان معظم ارتزاقهم من حراثة الأرض وغرس الأشجار خصوصاً أشجار النخيل . وهو ما يُعبر عنه بالفلاحة كما تقدم . وكانت أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات أكثر نبات العالم وشجر الدنيا [٤٩] .

من هنا فلا غرابة أن يكون الريف بشكل عام ، وريف العراق بشكل خاص ، أوطان جذب لاستقرار القبائل العربية التّنُوخيّة وغيرها التي نزحت من الجزيرة العربية ، قُبيل ظهور الاسلام بسنوات طويلة [٥٠] . ويتضح هذا الأمر في صورة جلية عقب الفتوحات العربية الإسلامية التي انطلقت من الجزيرة العربية الى البلاد المجاورة ،واهتمام القادة المسلمين في اختيار ما يُناسب العرب من البلاد لأجل استقرارهم فيها ، والعيش في ظلالها بما ينسجم وطبيعتهم الإنسانية . جاء في كتاب وجهه الخليفة العادل عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه الى القائد سعد بن أبي وقاص « ان العرب لا يصلحها من البلدان ،إلاّ ما أصلح الشاة والبعير ، فلا تجعل بيني وبينهم بحراً ، وعليك بالريف »[٥١] . وبالرغم من أن ظهور الاسلام كان في مكة المكرمة، في « وادٍ غير ذي

= الاقتصادية في المدينة الاسلامية ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، م ١١ ع ١ ، ١٩٨٠ ، ص ١٢٨ الحاشية .

(٤٨) الصياد ، محمد محمود : في الجغرافية الاقليمية ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ١٧٩ .

(٤٩) الألوسي ، محمود شكري : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب ، ط٣ ، تحقيق محمد بهجة الأثري ، مصر ، ٤١٧/٣ .

(٥٠) الطبري : تاريخ الرسل ، ق١ م٢/٧٤٥-٧٤٦ ، الحموي : معجم البلدان ، ٣٧٧/٢ — ٣٧٩ العزاوي : عشائر العراق ، ٩٥/١-٩٦ .

(٥١) الحموي : معجم البلدان ، ٣٢٣/٤ .

زرع »[٥٢]، كان ظهوره يُمثل تحولاً جديداً في حياةالعرب والإنسان العربي. فقد انتقل الكثير من العرب من حياة البداوة ، المعتمدة على الرعي والتنقل ، إلى حياة الاستقرار ، والاهتمام بالزراعة ، والعمل في الميدان الزراعي ، ومن ثم الارتباط بالأرض ، والانتماء اليها فيما بعد . وقد تجلّى ذلك في العهود التاريخية المتعاقبة لظهور الإسلام ، ولا سيما في عهد الرسول محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، و في العهدين : الراشديّ والأُمَويّ [٥٣] .

كان « سواد العراق » [٥٤] جزءاً من السواد العربي ، كما كان « سواد مصر » [٥٥] كذلك ، إلاّ أن استقرار العرب المسلمين في الأمصار الاسلامية وبناء المدن العربية ، كان سبيلاً إلى تطور مفهوم السواد ، بحيث صار يُلحق بالمدن التي يحيط بها داخل المصر الإسلامي الواحد ، ويسمى باسمها أيضاً .

---

(٥٢) سورة ابراهيم ، الآية (٣٧) ك .

(٥٣) للاطلاع انظر : الأعظمي ، عواد مجيد : الزراعة والاصلاح الزراعي في عصر صدر الاسلام والخلافة الاموية ، بغداد ، ١٩٧٨ ، ص ١٠ و ١٧–١٨ ومابعدها .

(٥٤) عن هذا المصطلح أنظر : البيروني ، محمد بن أحمد : الآثار الباقية عن القرون الخالية ليبزك ، ١٩٢٣ ، ص ٥٩ ، ٢٠٦ ، ٣١٨ . الماوردي : الاحكام السلطانية ، ص ١٤٨ ، البكري : معجم ما استعجم ، ج١/١٩٧ ، الأدريسي ، محمد بن محمد : تحقيق الجزيرة والعراق من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٧٣ ، م ٢٣/٢٣ . السمعاني ، عبدالكريم بن محمد : الانساب (ط حجرية) ليدن بريل ، ١٩١٢ ، P : 588 A ، الحموي : معجم البلدان ، م٢/١١٦ و٣٥٦ و٣٨٤ و م ٤/١٨١ و ٢٥٧ و ٧٨٠ ، ابن الأثير ، عز الدين الجزري : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٦٦ ، م ١١/٣٩٤ و ٣٩٥ واللباب في تهذيب الانساب ، ط١ الافست ، بغداد (غير مؤرخة) ج١/٥٧ وج٢/١٥١ و ج٣/٣٧٩ ، القزويني : آثار البلاد ، ص٤٤٩ .

(٥٥) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ١٩٣ ، الغساني ، اسماعيل بن العباس ؛ العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك ، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم (اطروحة ماجستير) جامعة بغداد ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٨–١٠٩ .

(٥٦) انظر : الحموي : معجم البلدان ، م١/٤٨٩ ، ابن الأثير : الكامل ، م ١١/٣٢٣ ، ابن الدبيثي ، ذيل تاريخ مدينة السلام‌بغداد ، مخطوطة مصورة عن مخطوطة دار الكتب الوطنية بباريس ، محفوظة بمكتبة الدراسات العليا بكلية الآداب ، جامعةبغداد ، الرقم=

فكان هناك « سواد واسط » (٥٦) مثلاً و « سواد الكوفة » (٥٧) و « سواد البصرة » (٥٨) وغيرها . وصار السواد في معانيه الأخرى يُراد به القرى والمزارع المحيطة بالمدينة. قال ابن منظور ؛ « والسّواد : ما حوالي الكوفة من القرى والرساتيق »(٥٩) وقال أيضاً « وسواد الكوفة والبصرة : قراهما » (٦٠).

والقرى هي السواد ، وأهل السواد أو السوادية هم سكان القرى في الريف ، خاصة عند أهل العراق (٦١) . وهنا يجدر بنا أنْ نذكر أنّ هذا المصطلح لم يكن استعماله واحداً في الأرياف العربية كافةً ، وانما كان يختلف من اقليم الى آخر تبعاً للّهجة العامية التي كانت سائدة عند سكان كل اقليم . فأهل السواد

= (١٢٤٠) جـ١/ ق (٢٩٥ أ) والرقم (١٢٤٢) م ٢ق٢/ق (٧٠ أ) .

(٥٧) انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ، ط٢ ، ليدن ، بريل ١٩٣٨–١٩٣٩ ، ق١ / ٢٤٣ الادريسي : نزهة المشتاق ، وروض الفرج وأنيس المهج ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٩٧٣ ، م ٢٢/٢٣ ، ٦٤ ابن جبير : الرحلة ، بيروت ، ١٩٦٤ ، ص ١٨٩ ، الحموي : معجم البلدان ، م ١٦٤/٣ ، ١٧٥ والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً ، ط كوتنكين ، ١٨٤٦ ، ص ١٥٨ و ٤٠٣ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٢٤٠/١ و ٥٠١ و ٧٦/٢ ، ٣٩٤ و ١٤٣/٣ و ٢١٩ و ٢٦٠ و ٢٦٢ و ٢٦٤ ، أبو الفدا ، عماد الدين اسماعيل ابن الملك : تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ ، ص ٢٩٦ ، الحميري: الروض المعطار ، ص ٣٣٢ .

(٥٨) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٤١٣ ، الحموي : معجم البلدان ، ١٧٥/٣ ، ابن الدبيثي : ذيل تاريخ مدينة السلام ، جـ١/ق (٢٩٥ أ) ، الحميري: الروض المعطار ص ٣٣٢

(٥٩) لسان العرب ، ٢٢٥/٣ . والرساتيق : مفردها رستاق وقيل رزداق : فارسي معرب ، معناه السواد والقرى . قال الشاعر ابن ميادة :

تقول خود ذات طرف براق هلا اشتريت حنطـة بالرستاق
سمراء مما درس ابن مخراق

أدي شير : الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٠٨ ، ص ٧١ ، ابن منظور : لسان العرب ، م ١١٦/١٠ . ويعرب الرستاق ايضاً بأنه وحدة زراعية تطلق على الصقع الذي يشتمل على القرى والمزراع . أنظر : أحمد سوسة ومصطفى جواد : دليل خارطة بغداد المفصل ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ١٩٥٨ ، هامش ص ١١ .

(٦٠) لسان العرب ، ٢٢٥/٣ .

(٦١) ابن طيفور أحمد بن طاهر الكاتب : بغداد ، مكتبة المعارف ، بيروت، ١٩٦٨ ، ص ١٦٥ .=

أو السوادية ، كما أشرنا ، كانت مستعملة في العراق للدلالة على سكان الريف هناك ، كما كانت لفظة « قرياتي » مستعملة في سُورِيَةَ في الدلالة نفسها (٦٢)

الا أن القرى كانت تسمى أيضاً « الفلاليج » (٦٣) ، يقال مثلاً : فلاليج السواد ، ويراد بها قراها (٦٤) . مثلما كان يُقال لقُرى الشام : كُفُور الشام (٦٥) ، ولأعراض المدينة : قرى المدينة (٦٦) .

ولما كانت القرية هي الوحدة الاجتماعية لمجتمع ريف المدينة ، وهي جزء منه كذلك ، ولكون السواد الذي يكتنف المدينة ، أية مدينة كانت ، يعني الأرض الزراعية المحيطة بها ، ويعني القرى أيضاً (٦٧) — كان مجموع قرى المدينة الواقعة في سوادها يُمثل في منطوقها النظري والعملي ريف المدينة نفسها. أن مجموع ريف المدن داخل الإقليم الواحد ، يُمثل ريف الإقليم كله .

مثال ذلك أن « ريف واسط » و « ريف الكوفة » و « ريف البصرة » و

= الازدي ، أبو المطهر محمد بن أحمد : حكاية أبي القاسم البغدادي ، ط الأفست عن طبعة كرل وفتر ، هيدلبرج ، ١٩٠٢ م ، ص ١٠٧ ، ابن الاثير : الكامل ، ١٤٦/١١ ، ٢١٣ ، سبط ابن الجوزي ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قز أوغلي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، الهند ، ١٩٥١ ، جـ٨ ق١/١٧٦ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٧٨/٢ .

(٦٢) يوهان فك : العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والأساليب ، ترجمة د . عبدالحليم النجار ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ١٩٧ .

(٦٣) واحدتها الفلوجة ، وهي الأرض المصلحة للزرع . لسان العرب ، ٣٤٦/٢ .

(٦٤) الحموي : معجم البلدان ، ٩١٥/٣-٩١٦ ، ابن عبدالحق : مراصد الاطلاع ، ٣٦٠/٢ .

(٦٥) يسمي أهل الشام القرية بـ « الكفر » وهي ليست عربية . وحسبها ابن دريد سريانية معربة . انظر الجواليقي ، موهوب بن أحمد : المعرب من الكلام الاعجمي على حروف المعجم ، ط الاوفست ، طهران ، ١٩٦٦ ، ص ٢٨٦ ، الحميري : الروض المعطار ، ص ٤٩٩ . وقال الأزهري : الكفور : القرى النائية عن الأمصار ومجتمع أهل العلم . انظر : لسان العرب ، م ١٥٠/٥ .

(٦٦) البكري : معجم مااستعجم ، ١٢٢٨/٤ . يقال : أخصب ذلك العرض وأخصبت أعراض المدينة ، وهي قراها التي في أوديتها . ابن منظور : لسان العرب ، ١٧٣/٧ .

(٦٧) لسترانج ، كي ، : بلدان الخلافة الشرقية ، ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، =

« ريف بغداد » وغيرها ، تُمثل « ريف العراق » ، أو ما اصطلح عليه تاريخياً بـ « أرياف العراق » [٦٨] . مثلما كان « سواد البصرة » و « سواد الكوفة » و « سواد سامراء » و « سواد بغداد » وغيرها تُعد أجزاء في « سواد العراق » وهو جمع لها كذلك .

والشيء عينه يُقال في « سواد مكة »[٦٩] في الجزيرة العربية و « سواد طرابلس » [٧٠] في بلاد الشام و « سواد إشبيلية » [٧١] في بلاد الأندلس ، فهي أجزاء من السواد العربي ، ومجموعها يُكون الريف العربي .

الخلاصة

ونخلص مما تقدم عرضه الى أن « الريف » على اختلاف معانيه اللغوية يرتبط بالزراعة ، ويجعل مفهوم مصطلح « السواد » وثيق الصلة بها بقدر درجة صلته بخضرة الزرع والشجر التي يدل عليها في معناه .

لقد ارتبط مصطلح « الريف » بمناطق معينة تسودها خصائص طبيعية وبشرية معينة أضفت عليها صفة الخضرة مما يتصف به الزرع . ولا غرو فلابد لقيام الزراعة من عوامل طبيعية وبشرية معينة ، كالتربة والمناخ وخصائص السكان الذين تتطلب ممارستهم الزراعة انصرافهم إليها ، وما يرتبط بكل هذا من شكل معين للاستيطان يتخذ عادة شكل قرى .

= بغداد ، ١٩٥٤ ، ص ٤١ . وانظر أيضاً للكاتبة : ريف بغداد ، دراسة تاريخية لتنظيماته الادارية واحواله الاقتصادية فيما بين ٥٧٥-٦٦٥ هـ ، (وهي أطروحة دكتوراه من جامعة بغداد ، ١٩٨١ ستنشر قريباً باذن الله) ، ص ٣٣ .

(٦٨) البكري : معجم مااستعجم ، ٩١٤/٣ وكتابنا ريف بغداد ، ص ٣٣ .

(٦٩) ناصر خسرو ، أبو معين الدين ناصر : الرحلة ، ترجمة د . يحيى الخشاب ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٧٠ م ، ص ١٢٤ .

(٧٠) ناصر خسرو : الرحلة ، ص ٤٨ .

(٧١) المنذري ، زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي : التكملة لوفيات النقلة ، النجف ، ١٩٧١ ، ٨٤/٤ .

وفي ضوء ما تقدم يمكن فهم تطور التطبيق الاصطلاحي لمفهومي « الريف » و « السواد » في الوطن العربي . حيث تضمن مصطلح « الريف » معنى من معاني « السواد » وهو الخضرة . لذا نجد الريف حيث وفرة المياه وخصب الأرض التي أتاحت استقرار القبائل العربية النازحة من الجزيرة العربية

وقد رافق تطور بناء المدن العربية، تطور في مصطلح« السواد » إذْ صار العرب يُلحقونه بالمدن التي يحيط بها ، وصاروا يُعرّفون سكان القرى في الريف بـ « أهل السواد » أو « السوادية » . ويصح هذا بشكل أخص على العراق . وعند هذا المصطلح « السواد » الذي أصبح يضم الأرض الزراعية وما عليها من قرى ، ظهر التطابق بينه وبين مصطلح « الريف » . فصار تطابق في استعمال مصطلح « ريف المدينة » مع مصطلح « سواد المدينة » . كما صار تطابق في استعمال مصطلح « ريف الاقليم » الذي هو مجموع أرياف مُدنه مع « سواد الأقليم » الذي هو مجموع سواد مُدنه .

وبعبارة أخرى إن مصطلحي « الريف » و « السواد » اللذين ما كانا يخرجان عن دلالتهما اللغوية ، أصبح لهما مضمونان اصطلاحيان متطابقان . اذ يُشير كل منهما إلى مواضع خاصة يتوافر فيها نشاط اقتصادي معين وهو الزراعة ، ويظهر الاستيطان فيهما على شكل قُرى. وقد اقترن ذلك بتطور المـــدن التي أصبح لكل منهما ريفها الذي لا يخرج عن كونه سوادها .

* * *